في ظل العولمة
الدولة القطرية أضواء علي الماضي والحاضر

بروفيسور/ خالد سر الختم السيد
استاذ مادة العلوم الادارية
مستشار إداري - عضو الهيئة

ضرورة قيام الدولة :

لقد أجمع علماء المسلمين من سلف وخلف علي قيام الدولة وقد اشير إليها بالخلافة او الامامه وهي موضوعه لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا وعقدها لمن يقوم بها واجب بالإجماع وإن شذ عنهم الأصم . ويقول إبن خلدون إن نصب الإمام واجب . وقد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابه والتابعين لان أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم عند وفاته بادروا الي بيعة ابي ابكر الصديق رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في امورهم . وكذا في كل عصر من الاعصار واستقر ذلك إجماعاً دالاً علي وجوب نصب الإمام [1].

نقل هذا الرأي امام الحرمين الجويني والماردي والتفتازاني وابن تيميه والإمام القلمي والشيزري والشوكاني وغيرهم وجاء ذلك في كتب الحديث النبوي الشريف مما لا يحتاج الأمر الوقوف عنده كثيراً . كما اتفق علماء المسلمين وجمهورهم علي أن اقامة الخلافة واجب شرعي وعقلي ثم قسم العلماء الاجلاء البلاد الي دار إسلام ودار حرب إصطلاحاً يعرف بوجود سلطة الدولة المسلمه وسريان احكامها ونفاذها ويتم التعامل بينها بالأعراف والمواثيق والعهود والمعاملات بالمثل والتي لا تتجاوز القيم والاخلاق والسلوك القويم

مصطلح الدولة

لم يتفق العلماء فيما مضي حول تعريف العلوم الوضعية إذ أن لكل منهم رؤي ينظر منها الي الموضوع . وكما تعددت الرؤي إقترب الاكثرون من تعريف إصطلحوا عليه هذا جاري في كل العلوم الاجتماعية من إدارة وإقتصاد وعلوم سياسية وإجتماع الخ.... لذا لم يتفق علماء القانون مثلاً علي تعرف موحد لمفهوم الدولة فالفقيه القانوني الفرنسي ديجي يري جواز اطلاق الدولة علي كل تنظيم للجماعة السياسية في اي مجتمع من المجتمعات ولو كان ذلك المجتمع بدائياً لتوفر وجود جماعة حاكمة وآخري محكومة خاضعة لأوامر الجماعة الحاكمة ونستخلص أن وجود الدولة واركانها تتلخص في وجود أربعة عناصر هي :

(أ) السلطة

(ب) الشعب

(ج) الارض او الاقليم وهي متمثلة في الدولة الإسلامية منذ نشأتها وهذه الاركان الاساسية التي يكفي توفرها لكي يوصف المجتمع السياسي بانه دولة في الفقه الدستوري هذا بجانب الركن

الروحي وهو الرابع وهو الذي يشكل الضوابط الإلهية في نطاق العقيدة والتشريع (٢) .

ويذكرنا د. حامد عبدالله ربيع دائماً ان حديث السلطة يخضع لمفاهيم آخري ثلاثة هي العدالة واحترام القانون ومبدأ التسامح ولكن المقام ليس مقام اطناب (٣) فالأمر يتعلق بنظريات وظائف الدولة .

الأمم القطرية عبر التاريخ:

المفكر المسلم لابد أن يأطر لأفكاره من خلال عقيدة دينية بإيمان راسخ مستمد من كتاب الله وسنة رسوله عرف بالشرع والمنهج الإسلامي . ولابد من نظرة مؤمنة تستفيد من التاريخ كمصدر من مصادر التشريع . والتاريخ الذي نقصده هو تاريخ الوحي والقصص القرآني. عرف العالم امم سادت ثم بادت كقوم سيدنا نوح ثم عاد وثمود وقوم تبع وسبأ والفراعنه وفارس والروم. ويمكننا أن نقول إنها امم قطرية أمتدت عبر مساحات شاسعة وحكمت لازمان طويلة .

وتعزي أسباب انهيارهذه الأمم لفساد العقيدة التي عرفوا بها ولفساد خلقهم وانخرافاتهم الظاهرة والباطنة عن الخلق السوي . هنالك انحرافات كان سببها السلطان وأخري سببها المال وكانت الانحرافات الجنسية والعلاقات المحرمة سببا للخسف والرجم والإبادة الكاملة- كما حدث لقوم سيدنا لوط مثلا - يمكن أن تجمع هذه الاسباب بان مصدرها هوي النفس وحب الشهوات وعبادة الذات .إن الخروج عن طاعة الله هي المهلكات .

ينبغي أن لا تغيب عنا النماذج التي اوردها القرآن الكريم لقيام حضارات سادت ثم بادت كما اسلفنا . ولان العالم الغربي اصبحت حضارته اليوم غالبة فلقد ركز علي دراسة النماذج اليونانية من الحضارة والدولة القطرية في الفترة من القرن السابع حتي القرن الخامس قبل الميلاد ومحاولات خلق الدولة الموحدة والمثالية والحرة ثم النموذج الروماني حيث طغي السادة علي الآخرين واصبحت السلطة ممثلة فيهم باستبداد واضح في محاولة قومية يطغون بها علي الآخرين من حولهم . اما النموذج الفارسي والذي كان منافساً للرومان فلقد كان الفرد الحاكم طاغيا فيه ممثلا في شخص الشاهنشاه او ملك الملوك والذي يقيم نظام الطبقات منهم الاشراف الدهاقين الذين يملكون الأرض وطبقة النبلاء المرازبة وهم حكام الولايات وطبقة الاصابذة وهم الطبقة العسكرية ثم طبقة رجال الدين (الموابذة) وهم الطبقة الأخطر والابعد اثرا ثم الطبقات الأخري .

ثم ركزت دراسات الغرب علي النوذج الكاثوليكي في فترة القرون الوسطي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر وقد شهدت هذه الفترة ميلاد الدول القومية والذي قوي فيها مفهوم الدولة وساد علي الكنيسة وغلبها ففي النوذج الكنسي الكاثوليكي كان طغيان اللاهوت فوق العلم والفرد وكان من غلو الكنيسة أن ابتعد الناس عنها واقاموا النموذج الذي دعت له الثورة الفرنسية ومفكروها والمعروف بالعلمانية والذي ارغم الكنيسه علي الانسحاب من الساحة العامة ولا يفوتنا أن نذكر محاولات اليهود منذ العهد الروماني وسحق دولتهم علي يد بختنصر البابلي

ولكنهم الان يفرضون السيطرة علي العالم (ستة مليار) من خلال اقليتهم التي لا يتجاوز الستة مليون نسمة.

وحقيقة الأمر لقد افلحوا اخيرا وعلوا علي العالمين بفضل تخطيطهم الناجح للسيطرة علي قيادات العالم من خلال الماسونيه وغيرها و من خلال سيادتهم علي اسواق الأموال ورؤوسها وعلي سيطرتهم على وسائل الاعلام ومن خلال ملكهم لأسرار الأسلحة بجميع اشكالها فالعلم والمال والسلاح ترسانة لا يستهان بها .

بعض افكار ابن خلدون عن الدولة الإسلامية الشرعية والدولة الوضعية والأفكار الطوبية حول الدولة او أفكار المدينة الفاضلة :

يتحدث ابن خلدون عن قيام الدولة فيقول: (إن الاجتماع للبشر ضروري وهو معني العمران الذي نتكلم فيه وانه لابد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستنداً الي الشرع منزل من عندالله يوجب انقيادهم إليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه و الذي جاء به مبلغه (ويعني الرسول)وتارة الي سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم) (٤).

ويقول ابن خلدون (فالاولي يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط) .

وهذا يعني أن النوع الأول هو الحكم الشرعي الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالي لعباده والنوع الآخر هو الحكم الوضعي الذي لا يستند علي شرع إنما يستند علي قوة السلطان وقهره كما في حالة الفرد الحاكم في فارس اردشير الأول سنة ٢٢٦هـ الذي سمي نفسه ملك الملوك شروان الأول او يزدجرد الثالث الذين عرفوا ببني ساسان حتي عهد كسري ٥٣١- ٥٩١م وكسري انوشروان الأول ابرويز الثاني الذي حارب هرقل من ٦٠٣-٦٢٨م هؤلاء الأكاسرة والأباطرة بالأمس واليوم يستندون الي الحكم الوضعي وما يصدرونه من قوانين او اوامر مثل ما اشتهر به حمورابي في أرض بابل يصدر كل ذلك من قدراتهم واهوائهم وتصوراتهم (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) غافر ٢٩ .

ويتحدث ابن خلدون عن المدينة الفاضلة ورؤي الفلاسفة او الحكماء الذين ينظرون للناس لإيجاد حكم عادل في مدينة فاضلة يدعون لقيامها وهي فكرة طوبية ايدلوجية غير واقعية وقد اشتهرت منها افكار افلاطون الذي دعي اول ما من دعي الي الشيوعية الاولي في الممتلكات والنساء وحكم الدولة الجماعي Totalitarian.

الامة لغة وإصطلاحاً :

ام الشئ لغة أصله ومكه ام القري والأم الوالدة والامة الجماعة قال الاخفش هو في اللفظ واحد وفي المعني جمع . وكل جنس من الحيوان أمة والأمة الطريقة والدين . قال تعالي ((كنتم خير أمة أخرجت للناس)) قال الأخفش : يريد أهل امه اي كنتم خير أهل دين (٥) .

الأمة إصطلاحاً هي جمع من الناس يعيشون في

مكان محدد برغم إختلاف أعراقهم ولهجاتهم وأديانهم بتجمعهم سلطة او سلطان ينظم لهم حياتهم وعلاقاتهم مع الآخرين .

يقول ابن خلدون في مقدمته عن هذه الأفكار الطوبية (ما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب. اي نوعي الحكم الشرعي والوضعي الذين ذكرهما. وانما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من اهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه حتي يستغنوا عن الحكام رأسا ، ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمي ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسية التي يحمل عليها اهل الاجتماع بالمصالح العامة فأن هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة او بعيدة الوقوع إنما يتملكون فيها علي جهة الغرض والتقدير)) هذه الافكار الطوبية Utopia تمسك بها ماركس ولينين وستالين وتروتسكي وماو في الصين وهي التي أدت الي قيام الدولة الشيوعية والإشتراكية والتي انهارت في عام ١٩٨٩م كأول وآخر صنم فكري شيده الطوبيون الملاحدة والذين عرفوا بالرايديكاليون وتعني الثوريون اهل التغيير.

تصنيف كيانات الأمم والأقطار :

الف أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر احمد الشهرستاني (٤٧٩-٥٤٨هـ) كتابة المشهور الملل والنحل ونكتفي منه بالمقدمة الأولي في بيان اقسام اهل العالم جملة مرسلة فقال من الناس من قسم أهل العالم بحسب الأقاليم السبعة واعطي كل اقليم حظه من اختلاف الطبائع والأنفس التي تدل علي الالوان والالسن .

ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة التي هي ، الشرق والغرب ،الجنوب ،والشمال ووفر علي كل قطر حقه من اختلاف الطبائع ، وتباين الشرائع .

ومنهم من قسمهم بحسب الأمم ، فقال كبار الأمم أربعة : العرب والعجم والروم والهند ثم زاوج بين امة وامة فذكر أن العرب والهند يتقاربان علي مذهب واحد واكثر ميلهم الي تقرير خصائص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية والروم والعجم يتقاربان علي مذهب واحد واكثر ميلهم الي تقرير طبائع الأشياء والحكم باحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية (اي المادية) ومنهم من قسمهم بحسب الآراء والمذاهب وذلك فكرنا وغرضنا . وهم منقسمون بالقسمة الصحيحة الأولي الي أهل الديانات والملل وأهل الأهواء والنحل فأرباب الديانات مطلقاً مثل المجوس واليهود والنصاري والمسلمين وأهل الأهواء والآراء مثل الفلاسفة والدهرية والصائبة وعبدة الكواكب والاوثان والبراهمة ويفترق كل منهم فرقا فأهل الأهواء ليست تنضبط مقالاتهم في عدد معلوم . وأهل الديانات قد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها [٦] فافترقت المجوس علي سبعين فرقة واليهود علي إحدي وسبعين فرقة والنصاري علي أثنين وسبعين فرقة والمسلمون علي ثلاث وسبعين فرقة والناجية أبدا من الفرق واحدة ، اذ الحق من القضيتين المتقابلين في واحدة . ولا يجوز أن

يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان علي شرائع التقابل إلا وأن تقسما الصدق والكذب فيكون الحق في إحداهما دون الأخري ومن المحال الحكم علي المتخاصمين المتضادين في أصول المعقولين بانهما محقان صادقان .

وإن كان الحق في كل مسألة عقلية واحدا فالحق في جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة وإنما عرفنا هذا بالسمع وعنه اخبر التنزيل في قوله عز وجل (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (الأعراف:١٨١).

عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال:وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا يارسول الله كانها موعظة مودع، فاوصانا فقال(اوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعه، وان تامر عليكم عبد ، وانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ، واياكم و محدثات الامور،فان كل بدعة ضلالةٌ) اخرجه ابو داود والترمذى وابن ماجة واحمد. وقال عليه الصلاة والسلام:(لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين علي الحق الي يوم القيامه) وقال عليه الصلاة والسلام (لاتجتمع أمتي علي ضلالة) لابد أن نذكر هنا وثيقة المدينة التي ألف الله بها علي يدي نبيه صلي الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش والمدينة المنورة ونظم علاقتهم باليهود (وأنه من تبعنا من يهود فأن له النصرة والأسوة)(أن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلي الله عليه وسلم وأن يهود بني عوف أمة المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته) كانت هذه الوثيقة تأسيساً للمدينة وبناء الأمة بما فيها من أعراق وأديان فهي مجتمعة.

الدولة لغة واصطلاحاً:

الدولة من دول والدول في الحرب أن تدال إحدي الفئتين علي الأخري يقال كان لنا عليهم الدولة والجمع الدول بكسر الدال والدولة بالضم في المال يقال صار الفئ دولة بينهم يتداولونه يكون مرة لهذة ومرة لهذا قال ابو عمرو بن العلاء الدولة بالضم في المال وبالفتح في الحرب وقال عيسي بن عمر كلتاهما تكون في المال والحرب سواء [٧] .

والدولة اصطلاحا:

مما لا شك فيه أن الإسلام ليس عقيدة روحية فحسب بل هو كذلك وفي نفس الوقت نظام حياة شاملة تتضمن جميع مرافق الحياة الإنسانية المختلفة وهذا ما يعرف في مصطلحات اليوم بلفظ (الايدولوجية) ولابد لكل هذه المواقف المتعددة من اجتماعية واقتصادية وثقافية ودينية وعسكرية وغيرها من أن تنتظم بوساطة القانون وذلك في إطار الدولة الإسلامية ولذا قيل الإسلام دين ودولة. الدين المعاملة. وهنالك خصائص معينة تتميز بها الدولة الإسلامية في طبيعتها واول هذه الخصائص تتمثل في توحيد العبادة التي تدخل في مضمون حكمة الله تعالي في خلق الإنسان.

أما الخصائص الأخري في طبيعة الدولة الإسلامية فترتبط بمفاهيم الوحدة والأخلاق والعمل والأمة والمواطنة والعقيدة ، الجمع بين الروحانية والمادية والسيادة والسلطات العامة والسلام والمرونة [٨] يقول د. نزار عبداللطيف الحديثي: (إن الدراسات الأكاديمية لموضوعي الامة والدولة لم تتجاوز اللامنهجية [٩] إن القول بالامة والدولة يعني عملياً اننا نتحدث عن شخصية قيد التكوين. وهو يعني هنا الإسلام وما اتاحه من نشاط الحراك البشري والغزو المغولي وما اتاحه من إبادة وإحلال. شخصية قومية تمت عناصرها واستقرت أسسها وفلسفة تكوينها ولم يعد امامها ما تحتاجه سوي أن تفصح عن نفسها في كيان امة ونظام دولة وهذا يعني من الناحية العلمية ضرورة استيعاب التجربة التاريخية في الوطن العربي في حقب ثلاث اساسية هي النشأة والتكوين والاحتلال الأجنبي ثم العرب في الاسلام ١٠ ويقول (لان الاوربيين لم يستطيعوا فصل موضوعي الامة والدولة عن موضوع التنظيم فهم ينظرون الي كل تجربة قومية لا ترتبط بالتنظيم الاقتصادي علي انها مسألة هرطقة او في احسن الاحوال اساطير غيبية غير أن الدوافع الحقيقية في هذه النظرية تكمن في حرصهم علي ان لا يظهر مايهدد الأسس التي اقيم عليها النظام العالمي وهي أسس اقتصادية او بفهم أشمل مادية لاتعبر فقط عن المصالح إنما عن النمط الحضاري والرؤية الفلسفية وهذا ظاهر في هذه المدرسة عن المصالح إنما عن النمط الحضاري والرؤية الفلسفية وهذه ظاهر في المدرسة الرأسمالية والماركسية في نظرتهما الي الأمة العربية) [١١] .

ومن هنا تصبح دراسة الحديث النبوي ضرورة ليس لكونها احد مصادر دراسة الإسلام الأساسية بعد القرآن الكريم إنما للكشف عن علاقة بين العقيدة (النظرية) و بين سياسة النبي صلي الله عليه وسلم (التطبيق) إن الكشف عن هذه العلاقة يتيح فرصة تعزيز العلاقة الموضوعية بين العروبة والإسلام بالكشف عن المواكبة التاريخية لتحقيقها فالإسلام ليس عقيدة وحسب إنما هو عقيدة ونظرية ونضال ضمن معطيات مركزية هي الزمن العربي والأرض العربية وأمة العرب . لذلك فدراسة تطوره التاريخي وعملية تحققه اساسية لفهم الإسلام في زمنه المباشر (القرن السابع الميلادي) وفي سياقه التاريخي بوصفه اعلي مراحل التطور في التوحيد وفي بعده المستقبلي ومستقبله السياسي [١٢] وعلي عكس ما يعتقده البعض أدي ارتباط الدراسات الخاصة بالأمة والقومية والدولة بأروبا ومفكريها الي نتائج بشعة أكثرها بشاعة هو إهمال تاريخ ما قبل اروبا القرن الثامن عشر وبالتالي نفي اي تجارب من خارج التاريخ الاوروبي (إن كل استعمال لكلمة قومية لوصف حوادث تاريخية سبقت القرن الثامن عشر علي أقرب الإحتمالات استعمال في غير محله) لذلك فنقاط انطلاقها (القومية) يجب أن يحدد مكانها بالتأكيد في اوربا الغربية وزمنها في الانتقال من القرون الوسطي الي ازدهارها الأكيد في القرن التاسع عشر . لأنها اعتقدت أن التاريخ ابتدأ بها ، وإن مصالح (الدولة) هي مصالح التاريخ [١٣]

الغاء الخلافة الإسلامية :

تمكن الماسون اليهود من خلع السلطان عبد الحميد بانقلاب دبر له في عام ١٩٠٨م ومهد الماسون لكمال اتاتورك الذي أنشأ حزب الشعب الجمهوري وخلع السلطان محمد السادس في عام ١٩٢٢م ثم الغي الخلافة العثمانية ١٩٢٣م واعلن قيام الجمهورية التركية بشروط الحلفاء المنتصرين والتي املوها علي المسلمين عقب انتصارهم في الحرب العالمية الثانية علي الا تقوم جمهورية تركيا إلا اذا تم :.

١- إلغاء الخلافة الإسلامية وعدم الاعتراف باي فكر يقود إليها في يوم من الأيام المقبلة .

٢- إعلان العلمانية وفصل الدين عن الدولة.

٣- إلغاء المحاكم الشرعية وفرض القوانين المدنية السويسرية بدلا عنها .

٤- إلغاء القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية مثل الميراث والزواج والأحوال الشخصية وتحريم تعدد الزوجات .

٥- القضاء علي التعليم الديني ومنع تأسيس المدارس القرآنية للأطفال .

وقد زاد كمال اتاتورك في ذلك فمنع الآذان والزي الشرقي الإسلامي وشجع علي تحرير المرأة المطلق بعيداً عن الدين وفرض التعليم بالأحرف اللاتينية ومنعه بالعربية والغي وزارة الاوقاف الإسلامية ومنع الصلاة في مسجد أيا صوفيا .

البلاد العربية كدولة قطرية :

أمثلة من التاريخ:

كان الفراعنة والآشوريون والفينيقيون يطلقون اسم العرب علي أهل البادية في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب ويدخلون فيها - عدا بادية العراق والشام وشبه جزيرة سيناء صحراء مصر الشرقية ما بين وادي النيل والبحر الأحمر ، أما اليونان القدامي فكانوا يعدون بلاد العرب جنوبي جزيرة العرب بين خليج فارس والبحر الأحمر فيجعلون الحبشة واليمن وضفاف خليج فارس إقليما واحدا يسمونه اثيوبيا- اسيا ثم ينتهي اليونان في عهد البطالسة الي إطلاق أسم بلاد العرب علي الجزيرة العربية كلها وصطلحوا علي تقسيمها الي ثلاثة أقسام البادية Arabia Desert والحجرية Arabia Petra والسعيدة Arabia Felix وأقل ما يستنتج من ذلك أن بلاد العرب كانت تمتد في بقاع شاسعة من البحر الهندي في اقصي الجنوب الي ما بعد دمشق في اقصي الشمال وما بين بحر فارس ونهر دجلة والفرات في الشرق الي البحر الأحمر حتي النيل في الغرب [١٤]

قامت في بلاد العرب ممالك سادت ثم بادت وتعرضت بلاد العرب لسيطرة الفرس تارة ولليونان والرومان تارات آخرى لأهميتها كمعبر تجاري وكانوا يتخطفون من ارضهم حتي جاء الإسلام فأصبحت بلدا امنا يجئ إليه ثمرات كل شئ قال تعالي (وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) القصص ٥٧ .

نتيجة لاتساع الدولة الإسلامية قسم سيدنا عمر رضي الله عنه الدولة الي ثماني ولايات هي مكة والمدينة والشام والجزيرة والبصرة والكوفة ومصر وفلسطين . هذا وقد كانت

فلسطين في عهد البيزنطيين ولاية مقسمة الي عشر مقاطعات غير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قسمها الي مقاطعتين كبيرتين وقسم مصر الي عليا وسفلي . عرف العليا بالصعيد وكان يشتمل علي ثمان وعشرين مقاطعة وعين حاكما عليه هو عبدالله بن ابي السرح أما القسم الثاني فأشتمل علي خمسة عشرة مقاطعة وكان يحكمها عمرو بن العاص الذي كان في نفس الوقت الوالي علي مصر . وقد ابقي سيدنا عمر علي الاقسام الإدارية التي كانت قائمة في عهد الدولة الفارسية وقد كانت تلك المقاطعات هي فارس وكرمان وخرسان ومكران وسجستان وأذربيجان . ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن ليحدث تغييرا لمجرد التغيير ولكن اذا كان هنالك ما يقتضيه . طالما كانت التنظيمات القائمة سليمة وقادرة علي تحقيق الهدف فإن العمل يستمر بها دون حساسية او إعتراض والتغيير إنما يتم حينما يصبح التنظيم القائم غير قادر علي تحقيق الأهداف السابقة لظروف جديدة تكون قد استجدت او حدث وجدت أهداف جديدة تستدعي إعادة النظر في النظام القائم ١٥ وينقل د. محمد محمد جاهين عن مولوي أ.س.ت حسين قوله (وقد وصل الأمر في الدولة الإسلامية الي أن كل ولاية كانت تدبر شؤونها المالية والإدارية بما يحقق مصلحتها وليس للحكومة المركزية إلا دور المشرف العام بين شتي اقاليم الدولة لكي تقوم بالتنسيق وتحقيق التوازن المطلوب بين مختلف الولايات)[١٦] .

كما ينقل د. جاهين عن دكتور محمد جمال الدين سرور قوله : فلم يكن هنالك ما تفرضه السلطة العليا في حاضرة الخلافة علي الآهلين سوي دفع مبلغ معين من الخراج وليس ادل علي عدم تدخل الحكومة المركزية في شئون المدن من النظام الذي كان متبعا في فارس حيث كانت تقوم كل مدينة بشئونها الخاصة الي درجة كبيرة وتجبي الضرائب كما تريد علي أن تدفع الخراج المعين للدولة وكانت المركزية في بغداد تستشير الامراء حين تشرع في فرض ضرائب جديدة)[١٧]
ثم ينتقد د.جاهين صاحبه فيقول (لكن الكلام السابق يحمل تعميما لا يتسم بالدقة العلمية الكافية ذلك أن هذا الاسلوب وأن كان يمثل الاتجاه العام للواقع التاريخي والفكري للدولة الإسلامية إلا أنه كان يتضمن اتجاها الي الاسلوب المركزى واللامركزى فى ادارة شؤون بعض الولايات التابعه لها.فلم يكن الاسلوب الادارى واحداً بالنسبة لكل الولايات فيما يتعلق بالمركزية واللامركزية ويتضح ذلك من مناقشة موضوع الادارة على البلاد والاقاليم، والتى افرد لها الماوردى باباً مستقلاً تحت عنوان : (تقليد الامارة على البلاد) ومن كلام الماوردى يفهم ان الخليفة اذا قلد اميراً على اقليم او بلد كانت امارته على ضربين : امارة عامة اوامارة خاصه)

المنهج النبوي في ترسيخ : الحكومات والقادة والحكام :

كان رسول الله صلي الله عليه وسلماً معلماً للمؤمنين والمسلمين . وكان قدوتهم واسوتهم وسيظل الي يوم القيامه . وكان يؤكد للناس بأنهم أدري لإمور دنياهم فيشاورهم في الأمر

ويقبل منهم النصح بل ويعمل به إن كان مقبولاً ومعقولاً . ومن اوضح ذلك ما ذكره الكتاني من امثلة في إنشائه لوظائف ديوانية كانت تحتاجها الدولة في نشأتها وكذلك الدواوين التي أنشأها مما جاء في كتاب نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية للكتاني (١٣٤٧هـ) والأحكام السلطانية والولايات الدينية مما ذكره الماوردي ، او مما ذكره القلقشندي في صبح الاعشي من صناعة الانشاء ومما ذكره الخزاعي في كتابه الدلالات السمعية علي ما كان في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والولايات الشرعية (اكمله في سنة ٧٨٦ هـ ومات في ٧٨٩ هـ رحمه) ومما جاء في كتاب الاستعاب لابن عبد البر وهو من مراجع الخزاعي .

كان النبي صلي الله عليه وسلم معصوماً ولكنه كان يسمع ويعي ويقبل وينفذ فاصبح قدوة واسوة لصحابته الذين ساروا علي نفس نهجه ومنهجه في الإدارة او السياسة الشرعية كما كان يسميها السلف .

ومن سماحته أنه لم يكن ليطمع في ملك او سلطان اوجاه او مال . فمتي قبل الاسلام من دعاهم من قادة العالم لم يكن يفرض عليهم جباية الاموال لتعود عليه ، ولم يكن ليحرم هؤلاء القادة من ريادة قومهم بلي كان يكرمهم ويقدرهم ويثبتهم في ملكهم ما عرفوا الحق والتزموا به يمكن أن اشبه سياسته ومنهجه بأنه كان كالسيل قوياً يسلك المسالك والمجاري الطبيعية لايغير طبيعة الاشياء او يقلبها رأساً علي عقب لمجرد التغيير او تركيزاً للسلطة او حرصاً عليها ثم يمكث قراره في الأرض بنفع البلاد والعباد .

كان ينشئ من الدواوين وأجهزة الحكم ما يكفي بغير مبالغة في الانشاء فجاءت حكومته صلي الله عليه وسلم مثالاً للحكومة الصغيرة الحجم Little Government وذلك نسق حديث معاصر دعي له مفكروا الإدارة في السبعينات من القرن العشرين : مثل كتاب الصغير جميل Small is Beautiful والدعوة الي التقانة المتوسطة Intermediate Technology لشو ميكر والدعوة الي إدارة الاعمال من خلال شركات صغيرة ومتوسطة والتخلي عن الشركات العملاقة عابرة القارات والتي تحولت الي حكومات او سياسات من ورائها حكومات وايدولوجيات وربما ايضاً افكاراً طوبية .

منذ فجر التاريخ عرف العالم اباطرة وقياصرة وفراعنه وسلاطين سعوا الي حكم العالم او كل ما امكن ان يستحوذوا عليه من منطلقات فكرية او عقدية او دينية او شخصية وقد ذكره الكتاني في الجزء الأول من التراتيب الإدارية القسم الرابع في باب العمليات الاحكامية وما ينضاف إليها وفيه عده ابواب منها باب في الاكارة العامة علي النواحي نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر : (وفي صبح الأعشي لما اسلم باذان نائب كسري ولاه النبي صلي الله عليه وسلم علي جميع مخاليف اليمن وكان منزله بصنعاء مملكه التابعية وبقي حتي مات بعد حجه الوداع فولي النبي صلي الله عليه وسلم إبنه شهر بن باذان علي صنعاء . وولي علي كل جهة واحداً من اصحابه وذكر الثعلبي في باذام انه اول من اسلم من ملوك العجم واول امير للإسلام علي اليمن) [١٨] .

ثم ذكر الكتاني توليه الباهلي والد الهرماسي علي عشيرته من باهله . وإستعمل سعد الروسي علي قومه حين اسلم . وأمر صيغي بن عامر علي بني ثعلبه حين اسلم . وابقي امرئ القيس بن الاصبغ الكلبي زعيماً علي قومه كما كان حين اسلم واستعمل عبدالرحمن بن ايزي الخزاعي علي خرسان وعكاشه بن ثور علي انه كان عامل المصطفى على السكاسك والسكون . والعلاء بن الحضرمي علي البحرين وعمرو بن حزم الانصاري علي نجران وفي ترجمة قيس بن مالك الارحبي انه لما اسلم وأسلم قومه كتب له عليه السلام عهداً علي قومه همذان عربها ومواليها وخلاطائها أن يسمعوا ويطيعوا وان لهم ذمة الله ما اقاموا الصلاة كما ساق صلي الله عليه وسلم كتاباً آخر الي قيس بن مالك يستعمله فيه علي قومه [١٩] والقائمة تطول .

نهاية الاتحاد السوفيتي كدولة قطرية حديثة :

شهدت الستينات من القرن الماضي نهاية الحرب الفيتنامية وإنطلاق ثورة الشباب في فرنسا والمانيا واسبانيا وإمتد تمرد الشباب علي الحياة المحافظة التقليدية فظهر الهيبيز او الباحثون عن المتعة وحرية الحياة الخاصة المطلقة ويقول العالم الراديكالي س . رايت ميلز محللا هذه الفترة بانه ليس في الغرب ثمة قضايا اخلاقية حقيقية ... فالاقتصاد المختلط زائداً دولة الرفاه زائداً الرخاء ... تلك هي الصيغة التي توصي بان الرأسمالية ما تزال قادرة علي العمل . كانت هنالك مناداة بنهاية الايدولوجيات او الافكار العقدية المتمثلة في الشيوعية . وفي العقود التالية بدأ العالم غارقاً في الثورة وفي الايدولوجية والمجتمع الصناعي والمجتمع الصناعي بدأ يفجر صراعات جديدة . وفي عام ١٩٨٩م انهارت الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتي الذي افقد الثقة في القوي الثورية في المجتمعات الغربية وظهرت نظريات حول بداية الصراع ضد الإسلام والكنفوشيين يدعو لها برنارد لويس، وصمويل هنتجتون . وفوكاياما ينهي الحديث بدلاً عن نهاية الأفكار العقدية الايدلوجية بنهاية التاريخ في اتجاه انتصار الديمقراطية اللبرالية ويؤكد اليسار الجديد بأن إنهيار الشيوعية الماركسية اللينينيه كان شاملاً بما يكفي لاستبعادها كبديل الرأسمالية وكانت كارثة الستالينية كما يقولون قد حتمت إصلاح الشيوعية ولم تقدم اي فائدة للتروتسكية ولا للإشتراكية الديمقراطية ، ولا لأي تيار إشتراكي علي الإطلاق [٢٠] ثم لم يعد الأن من ينادي او يدعو للشيوعية كفكرة او دولة بعد أن غاصت في الوحل الي الأبد بحمد الله .

أمريكا بداية الانهيار كدولة قطرية حديثة :

كتب رجاء قارودي كتاباً موضوعياً يعدد فيه أسباب بداية الإنهيار بالنسبة لأمريكا وكتب زبيغني بيرجنيسكي كتاباً آخر اسماه أسباب إنهيار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٨٩م عدد منها الالحاد ورفض الاديان وعاداتها وفشل الملكية الجماعية . كما عدد الأسباب التي يراها انها تقود الي انهيار امريكا وحدد منها إنحسار

المد الديني وتخلي الناس عن الدين والاخلاق وإعتمادهم في التعامل علي الاخلاق الإجرائية اي القوانين وطغيان النزعه المادية وترجيح الكسب الشخصي المبني علي المصلحة الحديه علي كل المصالح القومية الآخري وغيرها . وكتب الالمانيان هانس بيترمارتين وهارالد شومان كتابهما فخ العولمة: الاعتداء علي الديمقراطية والرفاهية؛ وشرحا فيه كيف أن فرص العمل ستكون متاحة لعشرين في المائة من سكان العالم في القرن الحالي و ٨٠٪ هم العاطلون عن العمل . ويتفقا في ذلك مع غارودي أن المصانع وآلات الانتاج ستحول لدول نامية ذات بنيات تحتيه تمكن من الانتاج وبما أن تكلفة العمالة في مثل هذه الدول ـ تايوان ، وماليزيا ، واندونيسيا ، وكوريا ، والهند وغيرها ستكون زهيدة فهامش الوفر من كلفه القوي الغربية العامله سيكون لصالح اصحاب العمل مما يشكل بالنسبة لهم إضافات ربحية افضل و هذا يفسر اسباب المظاهرات في الدول الصناعية الكبري والتي تتهددها العولمة . اما الدول النامية ذات البنيات التحتية المذكورة والتي تمكن الإنتاج فستكون مستهلكه وبيئتها ستكون ملوثة وسيكون شعبها مستهلكاً وبالطبع فهذا اسوء استغلال للشعوب النامية.

ومن الاسباب القوية التي ستؤدي الي سقوط امريكا كدولة قطرية إستعدائها بسياستها الاستكبارية المستعلية علي العالم بعد أن خلا لها الجو وانهار الاتحاد السوفيتي فاحتلت السياسة الاحادية في النظام العالمي الجديد مكان السياسة القطبية التي مكن توارث القوي وسباق التسلح من ضبط النفس وحساب كل خطوة تخطوها الدول بحذر شديد وتحسباً للعواقب . أمريكا كانت خلال الحقب السابقة قبل ١٩٨٩ تتفرج علي العالم ولا تقحم نفسها في مشاكله وتتحدث عن الحرية والديمقراطية والرأسمالية مع ضبط النفس واحترام الآخرين. ثم خلت لها الساحة فظهرت اطماعها كدولة استعمارية تريد أن تفرض سياستها بالقوة علي كل العالم . وتريد ثروات العالم بكل الطرق المشروعه وغير المشروعه وكل العالم يشهد علي اعتداءتها علي السودان وافغانستان والعراق والصومال واستعدادها للانقضاض علي بقية الدول الإسلامية مثل ليبيا و إيران وسوريا والسودان والبقية تأتي .

أما اخطاؤها الجسيمة التي ستتسبب في انهيارها فهي تناقضها في المبادئ وما تدعو اليه فهي تدعو للعدل وتظلم الفلسطينيين والسودان والمسلمين والعرب وتقف مع اسرائيل بلا حدود وتدعو للديمقراطية وهي تفرض نفسها ومن تريد بقوة السلاح وبضغوط الاموال بالاعتداءات المباشرة ومنها التصفية الجسدية للخصوم وتدعو لحرية السوق وهي تقصي المنافسين الضعفاء من حلبة السوق وهي تدعو الي المشاركة العلمية وهي تمنع التقانة عن دول العالم التي تتهمهم بدول محور الشر او الارهاب ومنها السودان حين منعت عنه الحواسب الالية المتقدمة وقطع غيار الطائرات واجتهدت فى حصاره وابعاده وعزله عن العلم والعالم ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

الخلاصة :

إن المصادر الغربية لتعريف مصطلحات الأمة والدولة وهي مصادر سياسية وشخصية غير موضوعية تستبعد حق الآخرين في التعريف بإعتبار أن الحضارة الغربية هي المصدر الاوحد الموثوق به .

وحقيقة الأمر أن المصدر الموضوعي العلمي اليقيني هو المصدر القرآني والسنة المطهرة وعلي المسلمين أن لا يركنوا الي أعداء الله فتمسهم النار بسبب زيفهم ومجانبتهم للصواب. فالامة والدولة القطرية ارتبطت بالعقيدة والتطبيق للشريعة نشأة وتكوينا وتاريخيا وسلوكا . وبرغم ارتباط الامة الإسلامية كمجموعة واحدة إلا أن البعد الجغرافي ومقومات أخري تسمح بالتعدد وحرية التصرف والحركة :وعلي المسلمين في انطلاقهم العلمي المنهجي أن يقفوا علي المصادر الأساسية التي اصلها ثابت وفرعها في السماء والتي تأتي اكلها كل حين بإذن الله .

لقداجتمعت اليوم للعلماء حكومة تحتكم الي شرع الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم

المراجع :

- الشهرستانى الملل والنحل تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ١٣٩٥-١٩٧٥م.
- عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ،مقدمة ابن خلدون ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان.
- د. عارف خليل ابوعبد ، العلاقات الخارجية في الدولة الخلافة . دار الارقم ، الكويت ، ط اولي ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ص ٢١ ،٢٢و٢٣ بتصرف.
- أنظر كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك لشمس الدين احمد بن ابي الربيع ، تحقيق د. حامد ربيع ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م
- العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ ط .
- راسل جاكوبي في نهاية اليوتوبيا ، ترجمة فاروق عبد القادر ، عالم المعرفة رقم: ٢٦٩، الكويت مايو ٢٠٠١ م .
- مختار الصحاح .
- د. صبحي الصالح النظم الإسلامية نشأتها وتطروها دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة صفر ١٣٩٦ (فبراير) ١٩٧٦ م .
- محمد محمد جاهين التنظيمات الإدارية في الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م.
- كتاب الإدارة العربية إدارة في الثقافة العامة بوزارة التربية والتعلين (المصرية) مشروع الألف كتاب رقم١٨٦ .
- د.جمال تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، دار الفكر العربي القاهرة.

(هوامش)

١ عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ،مقدمة ابن خلدون ،دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، الجزء الاول الفصل الحادي والخمسون في ان العمران البشري لابد له من سياسة ينتظم بها امر

٢ د. عارف خليل ابوعبد ، العلاقات الخارجية في الدولة الخلافة . دار الارقم ، الكويت ، ط اولي ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ص ٢١ ،٢٢و٢٣ بتصرف

٣ أنظر كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك لشمس الدين احمد بن ابي الربيع ، تحقيق د. حامد ربيع ، مطبوعات الشعب ، القاهرة ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م ، ص ٢٨٦.

٤ مقدمة ابن خلدون ،مرجع سابق ،ص(٢٠٣)

٥ مختار الصحاح

٦ الملل والنحل دار المعرفة ، بيروت لبنان ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ١٢٩٥-١٩٧٥م ص١٢

٧ مختار الصحاح ٢ الامام الحافظ ابن رجب الحنبلى، جامع العلوم والحكم، الحديث الثامن والعشرون .

٨ د. حسن سيد سليمان ، الدولة والنظام السياسي في الإسلام جامعة الخرطوم ، ط اولي ١٤١٦-١٩٩٥م ص ٣٥

٩ د. نزار عبداللطيف الحديثي، الامة والدولة في سياسة النبي صلي الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، دار الحرية للطباعة بغداد العراق الطبعة الاولي ١٩٨٧م ص٥

١٠ المرجع السابق ص٨

١١ المرجع السابق ص٧

١٢ المرجع السابق ص ١٠

١٣ الحديثي مرجع سابق ص٧

١٤ د. صبحي الصالح النظم الإسلامية نشأتها وتطروها دار العلم للملايين بيروت الطبعة الثالثة صفر ١٣٩٦ (فبراير) ١٩٧٦ م.ص ٣٧/٣٨

١٥ محمد محمد جاهين التنظيمات الإدارية في الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م ، ١٣٥،١٥٢ بتصرف

١٦ من كتاب الإدارة العربية إدارة في الثقافة العامة بوزارة التربية والتعلين (المصرية) مشروع الألف كتاب رقك ١٨٦ ص ٣٢٤

١٧ من كتاب د.جمال تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ، دار الفكر العربي القاهرة ص ٩٨

١٨ العلامة الشيخ عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية المسمي التراتيب الإدارية ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ ط ، ص ٢٤٠

١٩ المرجع السابق ص ٢٤٣ و٢٤٤ بتصرف

٢٠ راسل جاكوبي في نهاية اليوتوبيا ، ترجمة فاروق عبد القادر ، عالم المعرفة رقم: ٢٦٩، الكويت مايو ٢٠٠١ ،ص ١٧ الي ٢٥ بتصرف